"الأدب الموريسكي" منطقة تقاطع حضاري ووصل فني

"ابن السراج والجميلة شريفة" نموذجاً

El Abencerraje y la Hermosa Jarifa
(An anonymous Spanish novella of the mid16th century)

د. سحر محمد فتحي عبد العليم (*)

الملخص:

تنطلق هذه الورقة البحثية من فرضية ترى أن الأدب الموريسكي منطقة تقاطع حضاري ووصل أدبي وفني؛ حيث ينتمي إلى تلك الحقبة الزمنية التي تنتقل فيها الأندلس من حكم العرب إلى حكم الإسبان بكل ما تحمله هذه الفترة من تحولات وتغيرات، ومن ثم تقاطعات ثقافية على مستويات عدة، تتمثل على المستوى الجمالي الفني في الأدب الموريسكي بما يحويه من شعر ونثر وما يتسم به من خصائص فنية تجعل منه حلقة وصل تستثمر ما وصل إليه النتاج الأدبي الأندلسي لتلحقه بالثقافة الإسبانية التي ستبني عليه وتضيف إليه. وبما يمثله هذا الأدب من موضع تلاقٍ حضاري تتعايش فيه الهويتان، وتمتزج فيه الثقافتان؛ العربية الأندلسية والإسبانية برقي فشل فيه المستوى السياسي أو بالأحرى حاول تدميره.

وتستكشف الدراسة من خلال تحليل "حكاية ابن السراج والجميلة شريفة" سمات ذلك السياق الاتصالي شديد الخصوصية، متخذة النقد الثقافي منهجًا لها؛ لكونه منهجًا يهتم إلى جانب الكشف عن الأبعاد الجمالية للنصوص باستكشاف أبعادها الثقافية أيضًا بما تشمله من أيديولوجيات وعوامل سياسة واجتماعية واقتصادية وغيرها. فضلًا عن اهتمامه بمختلف أنواع

* – مدرس الأدب الأندلسي بقسم اللغة العربية وآدابها – كلية الآداب – جامعة القاهرة.

النصوص –لا النخبوي منها فقط– كالنصوص الشعبية والمهمشة وأدب الأقليات وما يمكن أن تكشف عنه هذه النصوص من أنساق مضمرة في الخطاب الثقافي.

–الكلمات المفتاحية: –الأدب الموريسكي – حكاية ابن السراج – القصة الموريسكية

Abstract:

This research hypothesizes that Morisco literature is an area of cultural intersection and a literary and artistic connection, which belongs to that period of time where Andalusia moves from Arab's rule to Spaniards' rule, with all that this period bears in terms of transformations and changes, and then cultural intersections on several levels. Artistic characteristics that make it a link that invests what the Andalusian literary production has reached to join it with the Spanish culture that will build on it and add to it. With what this literature represents the cultural convergence where the two identities coexist and the two cultures merge. Andalusian and Spanish in a sophisticated way that the political level failed to achieve, but rather tried to destroy.

Through the analysis of "The Tale of Ibn al-Sarraj and the Beautiful Sharifa" the study explores the features of that very specific communicative context, taking cultural criticism as its approach. Because it is an approach that, in addition to revealing the aesthetic dimensions of texts, is concerned with exploring their cultural dimensions as well, including ideologies and political, social, economic and other factors. In addition to its interest in different types of texts - not just the elite ones - such as popular and marginalized texts, and minority literature, and what these texts can reveal in terms of implicit cultural patterns in discourse.

Keywords: - Morisco literature - The tale of Ibn al-Sarraj – The Morisco story

تنطلق هذه الورقة البحثية من فرضية ترى أن الأدب الموريسكي منطقة تقاطع حضاري ووصل أدبي وفني؛ حيث ينتمي إلى تلك الحقبة الزمنية التي تنتقل فيها الأندلس من حكم العرب إلى حكم الإسبان بكل ما تحمله هذه الفترة من تحولات وتغيرات، ومن ثم تتقاطع الثقافات بما تحمله من مستويات؛ اجتماعية ولغوية ودينية وفكرية تتجلى هذه التقاطعات على المستوى الجمالي الفني ممثلة في الأدب الموريسكي بما يحويه من شعر ونثر ومن خصائص فنية

تجعل منه حلقة وصل تستثمر ما وصل إليه النتاج الأدبي الأندلسي لتلحقه بالثقافة الإسبانية التي ستبني عليه وتضيف إليه.

يتوزع الأدب الموريسكي بين الشعر والنثر والأزجال، وتمتد هذه الفترة عقب تسليم غرناطة سنة ٨٩٧هـ-١٠١٨م حتى قرار الطرد النهائي سنة ١٤٩٢هـ-١٦٠٩م؛ فهي فترة ليست بهينة يعكس أدبها المعاناة التي مر بها الموريسكيون والصراعات التي عايشوها بين هوية معلنة وأخرى مضمرة، بين التمسك والتخلي، الرفض والاتباع.

فالموريسكيون Los Moriscos مصطلح يطلق على من بقي في الأندلس من المسلمين بعد سقوط غرناطة، وهو صفة من اللفظ moro، ويعني هذا اللفظ في بعض النصوص الإسبانية عرب إسبانيا أو مسلميها، أو مسلمي الأندلس والمغرب أو يتسع ليشمل المسلمين بصفة عامة[١]، لقد ضمت كلمة موريسكي مجموعات متباينة على اشتراكها في الأصل الديني والظرف التاريخي؛ حيث تضم موريسكي مملكة "أراغون" و "بالنثيا" الممثلين للنظام الإقطاعي أصحاب التجارة والذين يتمتعون بقدر كبير من الثقافة، كما تضم موريسكي قشتالة الذين يشار إلى تمسكهم الشديد بثقافتهم ودينهم مع انصهارهم في نمط الحياة المسيحية وأغلب هؤلاء يعمل بالمهن الحرفية، ثم موريسكي الأندلس Andalucia الذين يشار إليهم باعتبارهم الأكثر تمسكًا واتصالًا بحضارتهم وتعاليم دينهم وعاداتهم. على هذا النحو فالموريسكيون المسيحيون أضمروا إسلامهم خاصة في منطقة "الأندلس" و"أراغون" و"بالنثيا"[٢]، ومن هؤلاء جميعا تشكلت الأقلية الموريسكية داخل المجتمع الإسباني التي تمسكت بالعديد من العناصر الثقافية المتناقضة والمُضطهدَة والمُحَارَبة من قبل مجتمعهم في هذا الظرف التاريخي.

ثمة اهتمام بحثي بهذه الفترة تمثل في كثرة الدراسات التاريخية التي ألقت الضوء عليها لكنها جاءت في أغلبها عبر دراسات المستعربين مقابل ندرة الدراسات العربية التي تناولتها، فرغم ثراء هذا التراث الأعجمي الموريسكي، فإنه لم يحظ بالتناول البحثي الكافي من قبل الباحثين العرب بصفة عامة وفي الجزء المشرقي من الوطن العربي بصفة خاصة فـ"التراث الأعجمي تراث ثري بالعديد من الملامح والجوانب التي يعوزها البحث والدراسة ... وعلى الرغم من تقديرنا لما بذله

المستعربون من جهد وما قدموه من أعمال في هذا الإطار، فإنه يبقى دائما نواح لا يستطيع كشفها أو توضيحها إلا باحث ينتمي هوية وثقافة إلى العالم العربي الإسلامي"[٣]، "وما زال التراث الموريسكي مجهولًا في وطننا العربي خاصة في الجزء المشرقي منه"[٤].

أما بالنسبة للدراسات الأدبية التي توقفت عند الفترة الموريسكية واهتمت بها، فالأمر يختلف كثيرًا؛ فبينما كثرت الدراسات التاريخية ندرت الدراسات الأدبية التي تناولت الأدب الموريسكي من حيث خصائصه الفنية واهتمت به، وأضافته إلى حقل الدراسات الأندلسية، وهو ما تشير إليه الباحثة فاطمة إبراهيم ميحسن في أطروحتها للدكتوراه بعنوان "الأدب العربي الموريسكي دراسة استقرائية تحليلية ثقافية"[٥] حيث تلتفت إلى عزوف الباحثين عن الدراسة الأدبية لهذه الحقبة بخلاف الدراسات التاريخية، ومن ثم تتخذ الأدب موضوعًا لأطروحتها وفيها تشير إلى قلة المصادر الأدبية التي تعين على دراسته؛ ذلك أن أغلب نتاجه مازال مخطوطًا ومتفرقًا في خزائن مكتبات العالم المختلفة؛ فالأمر يحتاج إلى رعاية من مؤسسات أكاديمية وثقافية متنوعة خاصة في المشرق العربي حتى ينال هذا الأدب ما يستحقه من الاهتمام البحثي.

فقد كان لدى الموريسكيين نتاج ضخم من النصوص الأدبية عُثر على جزء منه وما زالت اكتشافات بعض المخطوطات مستمرة إلى الآن؛ حيث "حُفظت النصوص الأعجمية في صورة مخطوطة فقط؛ فقد كانت تُكتب في السر ويُحتفظ بها في الخفاء: في بنية الأسطح، وفي المنازل، وفي الكهوف. وعندما اضطر الموريسكيون إلى ترك إسبانيا، بقيت المخطوطات في مخابئها، وحتى اليوم ما زال هناك عمليات اكتشاف لهذه الوثائق من حين لآخر"[٦]؛ لذا يعد اكتشاف "ألموناثيد دي لا سييرا" Almonacid de la Sierra من الاكتشافات المهمة جدًا، "ففي سنة ١٨٨٤ عند هدم أحد المنازل القديمة، عُثِر على حوالي ١٤٠ مخطوطًا، جزء منها كان عربيًا خالصًا، والباقي كان إما نصوصًا أعجمية كاملة أو يحتوي على أجزاء أعجمية"[٧].

على هذا النحو فهناك عدد من المخطوطات تم الاحتفاظ بها على الرغم مما لحق بها من خسائر أو ما دُمر منها عمدًا بواسطة محاكم التفتيش بالإضافة إلى الأعمال التي لم تكتشف بعد. وقد حظيت بعض هذه النصوص بدراسات غربية إسبانية على وجه الخصوص تنقب عن

تشابهات النصوص الموريسكية مع النصوص الإسبانية، فذهبت إلى أن "هذا الإنتاج لا يختلف – في العديد من الأوجه – عن نظيره المسيحي، وأحيانًا يكون وثيق الاتصال به. على سبيل المثال، يمكن أن نجد مصادر لهذا العمل المسرحي El Condenado por Desconfiado (مدانٌ بالاشتباه) لـ"تيرسو دي مولينا" Tirso de Molina في الأسطورة الأعجمية الموريسكية La leyenda de Yusuf el carnicero (أسطورة يوسف الجزار) كما أثبت ذلك "مينيديث بيدال Menendez pidal وينطبق الأمر نفسه على علاقة تصوف "سان خوان دي لاكروث" San Juan de la Cruz مع كتابات الموريسكي الأبيلي El Mancebo de Arevola أو مع كتاب La Estori(y) a Ke akaeci(y) o en ti(y)enpo de ica (القصة التي وقعت في زمن عيسى) الذي جمعه "بيسبيرتينو رودريغيث" والذي ظهر في حكايات "كانتربوري" "canterbury"[٨].

تنبع إشكالية تناول الأدب الموريسكي من تلك الأسئلة الحائرة الغائمة التي يتعرض لها الباحث في هذا الحقل؛ فلهذا الأدب شفرته اللغوية الخاصة وقضاياه الشائكة وأبرزها قضية الهوية الملتبسة وما تحتمه هذه القضية من تساؤل جوهري إلى أي حقل ينتمي الأدب الموريسكي إلى الدراسات الأندلسية أم الدراسات الإسبانية؟

وللإجابة عن هذا التساؤل كانت فرضية هذا البحث التي تراه من خلال ما يمثله وما يحمله من تقاطعات ثقافية وحضارية يستطيع الباحث أن يرى فيه الهويتين والثقافتين في تحاورهما على المستوى الأدبي الذي لم ينجح فيه بل حاول تدميره المستوى السياسي؛ حيث يمكن التوقف عند الجماعة التي أنتجت هذه النصوص وتلقتها باعتبارها جماعة خاصة في ظرف اتصالي شديد الخصوصية كذلك.

إن الأدب الألخميادو– الموريسكي يمثل وسيلة اتصال لأقلية دينية لا عرقية وهذا من الأسباب التي تمنحه خصائص لغوية وموضوعية؛ فتكثر فيه ألفاظ يُحتفظ بها كما هي نظرًا لقداستها التي تنبع من النص القرآني، وتكرار لتراكيب لغوية، كما تحمل الكثير من موضوعاته الحديث عن قيم متعددة مثل الرضا والطاعة والوفاء والتعايش والقبول، ومن ثم فهذا الأدب

يقدم قيمًا ثقافية وجمالية وتعبيرية عالية تستحق الدراسة الدقيقة لفهمها بشكل صحيح لا في ضوء المنطق الغربي، وإنما في ضوء البنى العقلية والتعبيرية للعالم العربي[٩].

تتجلى العديد من هذه الخصائص عبر تناول "حكاية ابن السراج والجميلة شريفة"، فالعمل ينتمي إلى القرن السادس عشر "هذا العصر الذهبي في الأدب الإسباني الذي شهد ظهور أعمال أدبية مولدة، مرآة للتعايش بين الثقافتين العربية الإسلامية والإسبانية المسيحية في هذه البقعة من أوروبا، حملت الأدب الإسباني إلى مصاف الآداب العالمية إلى يومنا هذا، من أبرزها دون كيخوتي، والكونت لوكانور، ولاثاريبو دي تورميس، ومسرحيات لوبي دي بيغا، إلى جانب العمل الذي بين أيدينا، ابن السراج، وأعمال أخرى"[١٠].

تحمل قصة ابن السراج والجميلة شريفة "خصائص القصة الموريسكية من مثالية، فهناك تعاون وتفاهم بين المسلم والمسيحي، مع وجود لعنصر يذلل العقبات كلها، وهو الحب، حب ابن الريس (ابن السراج) لشريفة. وهو تيار يحاول إعادة خلق فضائل الفروسية في العصور الوسطى، ... والشخصية الموريسكية تنتشر في أعمال ذلك العصر الإسباني والفترة اللاحقة، ولم تقتصر على السرد، بل امتدت إلى الشعر الشعبي والمسرح"[١١].

تمثل هذه الجملة الختامية لنهاية حكاية ابن السراج والجميلة التي تأتي على لسان الراوي على هذا النحو "أصبح كل طرف راضيًا عن الآخر وسعيدًا، تجمع بينهما صداقة قوية، دامت لهما طوال الحياة" [١٢]، الجملة المركزية التي تعود بنا إلى هذه الحقبة الزمنية من تاريخ البشرية التي مثلت أوج التفاعل الحضاري، والامتزاج بين الثقافات، والتعايش المثمر مع الآخر، إنها الأندلس، نظرًا لانتماء كل طرف من أطراف القصة إلى أشهر ثقافتين امتزجتا معًا فابن السراج ومحبوبته شريفة ينتميان إلى الثقافة العربية بينما ينتمي البطل الذي يتقاسم بطولة هذه القصة مع "ابن السراج" إلى الثقافة الإسبانية إنه الفارس "رودريغيث دي نربايث" "؛ لذا حينما تنتهي القصة وكل طرف فيها راض عن الآخر فإنها نهاية تستدعي الأندلس مباشرة.

فالأندلس النموذج الأبرز الشاهد على الحوار الخلاق بين الحضارات لما خلفته من ثراء حقيقي على المستويات كافة ما زال حاضرًا ومؤثرًا إلى يومنا هذا، حيث تشكلت بلاد الأندلس

من جنسيات متعددة وديانات مختلفة استطاعت أن تمتزج معًا امتزاجًا حقيقيًّا يُمَكِّنها من بناء حضارة خالدة فإن كانت "اعتمدت بادئ ذي بدء على علوم الإغريق ومجهودات علماء بغداد والمشرق الإسلامي... فلم تلبث أن استقلت فكريًّا. ولمعت في سمائها أسماء عريضة لعلماء فطاحل أمثال الفيلسوف الكبير ابن رشد وابن زهر وابن طفيل الذي ترجمت كتبه إلى عدد من اللغات الأوروبية وابن باجة وابن البيطار وابن فرناس وابن الخطيب والفيلسوف العالمي ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع والعالم الصوفي ابن عربي وابن سبعين وغيرهم من الأعلام" [١٣].

إلى هذه الهوية التاريخية تستند حكاية ابن السراج وإلى فترة زمنية مغايرة في أحداثها تنتمي حيث فترة الصراعات المتأججة بين الإسبان والعرب وما شهدته هذه الفترة من إقصاء وطرد وتنكيل بالعرب المسلمين فيما سمي "بحروب الاسترداد" وما سادها من تعصب ديني "حاولت فيه الكنيسة ومحاكم التفتيش محو كل أثر لحضارة العرب والإسلام التي كان لها الفضل في نهضة هذه البلاد، وانتهى الأمر بطرد مئات الآلاف من الموريسكيين أي المتمسكين بإسلامهم من الشعب الأندلسي وإرغام من بقي منهم على التنصر" [١٤].

تسفر هذه الأحداث على المستوى الاجتماعي والاقتصادي والسياسي عن ضرر بالغ يلحق بإسبانيا حيث فقدت بطرد الموريسكيين الطبقة التي يعول عليها اقتصاديًّا؛ ذلك أنهم كانوا المشتغلين بالفلاحة والتجارة والمهرة في الصناعات المختلفة فضلًا عن تأديتهم للضرائب المفروضة عليهم بانتظام، فخسر "الأسياد الإقليميون كثيرًا من إيراداتهم، ولم تستطع إسبانيا أن تخلف النقص في أعداد المزارعين أبدًا بعدما أضاعتهم بالطرد. ووقع اختبار مؤسف ومفاجئ برهن على الغلطة المشؤومة المرتكبة بذلك الإجراء فقد حلت المجاعة بطريقة مرعبة من العام الموالي لسنة ١٦١٠" [١٥].

على هذا النحو "كانت الأضرار التي سببها طرد الموريسكيين من إسبانيا جد خطيرة وحادة بحيث لم يكن مُضي قرنين ونصف كافيًا لإشفائها من ذلك تمامًا، فآثار الطرد تم لمسها بشكل قوي في النسق الاقتصادي والسياسي والديني" [١٦].

أما على المستوى الثقافي والفني فقد كانت هذه الأحداث عاملًا داعيًا لاستدعاء هذا الماضي بما يحمله من ازدهار وكرامة وعزة وقيم إنسانية، وما يمثله من هوية حقيقة للطرفين العرب والإسبان لا سبيل لإنكارها بل إن في استدعائها مواصلة وامتدادًا لحضارة تسهم في أن تلحق إسبانيا بركب الحضارة الحديثة بل وربما تقود هذا الركب في بعض المجالات عبر هذه الصحوة بخطأ القطيعة مع الماضي حيث الحضارة العربية تتولد مجموعة من الفنون جاعلة من القيم الإنسانية النبيلة الكامنة في أبطالها من الإسبان والعرب أداة الوصل الممكن والتفاعل المثمر الخلاق وتقبل الآخر ومواصلة البناء معه.

إلى هذا السياق تنتمي القصص الموريسكية، فالطبقة الجديدة التي تكونت من الإسبان بعد طرد الموريسكيين "أحبت أن ترى نفسها مسرودة ومحكية في جنس أدبي لم يعرف مخترعه اسمه، وإن أجاد تقنياته أثناء السرد نفسه. فكان ظهور الرواية الموريسكية، وهي رواية يكتبها القصاصون الإسبان وأبطالها عرب أو عرب وإسبان في الوقت نفسه، حيث نبالة الموريسكي في قيم الشجاعة والفروسية، في مواجهة نبالة الإسباني تنطلق من نفس القيم" [١٧].

وهو ما تجسده قصة ابن السراج والجميلة شريفة أبلغ تجسيد فالقصة لا تنتصر لطرف على حساب الآخر ولا تفضل طرفًا من الطرفين، القصة تنتصر عبر محتواها وتقنياتها الفنية للطرفين في النهاية بما يتمتعان به من مشترك ثقافي وحضاري يقارب هوياتهم، كما أنها من الناحية الفنية يمكن النظر إليها باعتبارها حلقة الوصل التي تتوسط بين التراث القصصي النثري من ناحية وبين الرواية الحديثة من ناحية أخرى؛ حيث تستند إلى تراث قصصي أندلسي متفرد يزخر بأعمال نثرية خالدة لابن حزم وابن شهيد وابن طفيل وغيرهم، وتسعى للتمكن من أدواتها والإضافة إليها حتى نصل إلى رائعة دون كيشوت التي انتقلت بالقص إلى العالم الروائي الحديث، ولعل في عرفان "ثربانتس" الكاتب الإسباني الشهير داخل عمله الأدبي بالدور الحضاري العربي وتأثيره ما يؤكد هذا التوجه؛ حيث يُضَمِّن رائعته الشهيرة "دون كيشوت" فصلًا ينسبه إلى مؤلف عربي يدعى سيدي حامدي فـ "كأنما هو عرفان للدور العربي في إسبانيا مما أعطاها السبق

في اختراع النوع الأدبي الأهم في العصر الحديث. الرواية الحديثة إذًا ذات نشأة إسبانية، وللعرب دور ما في هذه النشأة" [١٨].

إن قراءة هذه القصة من زاوية توسطها للمتصل الحضاري في هذه الفترة الزمنية الفارقة يوضح أهميتها من ناحية، ويفسر ما حظيت به هذه القصة من مكانة خاصة من ناحية أخرى. إلى الحد الذي يؤهلها أن تحظى بمصطلح الرواية ـ على سبيل التجوز ـ كما يشير العطار في حديثه عنها فالقصة بالنسبة له "رواية بديعة مليئة باللمسات الرومانسية، تلك هي رواية" ابن السراج "، التي نالت مكانة خاصة في الزمن الرومانسي الأوروبي بعد ثلاثة قرون لسبقها الرومانسية بغنائية وذاتية شفافة، تقدم نموذجًا رومانسيًّا للحب والصداقة والمبارزة" [١٩].

تتخذ قصة ابن السراج والجميلة شريفة من الحب قيمة إنسانية مُحركةً لأحداثها، ومن صفات الفرسان مُشَكلًا لأبطالها؛ حيث تدور القصة حول محاولة "ابن السراج" الفارس العربي الشهير مجاوزة المنطقة الحدودية للوصول إلى حبيبته الجميلة شريفة صاحبة الأصل الرفيع وسليلة أعيان غرناطة حتى يفي بوعده لها بأن يذهب إليها أينما حلت ليتزوجها، فبعدما تمكن من قلبيهما الحب انتقل أبوها ليتولى حكم بلدة أخرى فاضطرت للمغادرة معه، فكان الوعد الذي قطعه "ابن السراج" على نفسه للحاق بها، وبينما هو في طريقه يعترضه الفارس الإسباني ذائع الصيت "رودريغيث دي نربايث" فيقع ابن السراج في أسره لتتوالى الأحداث بينهما إلى أن ينجح ابن السراج بمساعدة الفارس الإسباني بالزواج من الجميلة شريفة فتتولد صداقة تجمع الطرفين إلى الأبد.

تنبني أحداث هذه القصة عبر مجموعة من التقنيات الفنية الموظفة بإجادة شديدة للوصول إلى هذه النهاية المتكافئة "أصبح كل طرف راضيًا عن الآخر وسعيدًا، تجمع بينهما صداقة قوية، دامت لهما طوال الحياة"[٢٠]، هذه النهاية المحملة بمعاني التقاء الحضارات والتعايش والتفاعل الخلاق كان سبيل الوصول إليها التشكيل الفني وتوظيف التقنيات التي عمد إليها مؤلف القصة؛ فالقصة تقوم على بطولة ثنائية تجسدها شخصية "ابن السراج" الفارس العربي الذي لا يهزم من ناحية، وشخصية الفارس الإسباني ذائع الصيت "رودريغيت دي نربايث" من ناحية

أخرى، كلاهما يحتل مساحة متساوية في الوصف والحوار وتتخذ الحوارات بينهما شكل المساجلة الواعية بقدر ومكانة طرفيها وعيًا تذوب معه حسابات المنتصر والمهزوم، وتأتي شخصية الجميلة شريفة بمثابة القيمة الجوهرية والمركزية المحركة للأحداث، وعبر ما يحمله بطلا القصة من قيم الفرسان وما تعنيه هذه القيم من نبل وشجاعة وإصرار ومواجهة تتكون عقدة القصة في الصراع بين ما تحتمه هذه القيم من واجب وبين ما يحمله القلب من حب، هذه التقنيات المختلفة على أوليتها إلا أنها وظفت بعناية وإجادة أكسبت الرواية متعة الحكي وجذبت القارئ لمتابعة الأحداث.

تبدأ القصة بالوصف المُجسد لشخصية الفارس الإسباني على هذا النحو "كان هناك فارس يدعى رودريغيث دي نربايث، وكان نبيلًا بفضائله وحمله للسلاح، أبلى بلاءً حسنًا في محاربة المسلمين، خاصة في حرب أنتيكرة، حيث سجل وقائع تستحق التخليد" (قصة ابن السراج والجميلة شريفة، ص ١٣)، يليه مباشرة ظهور الفارس العربي "ابن السراج" حيث رأى جنود "روديغيث" "مسلمًا لطيفًا على صهوة حصان يتقدم نحوهم. كان بدينًا وجميل المحيا، وذا هيبة فوق جواده يرتدي قرمزية وبرنسا من الحرير المشرقي من اللون نفسه، مطرزين بالذهب والفضة، وقد شمر عن ذراعه اليمنى، وكان منقوشًا عليها امرأة جميلة، وفي يده سهم سميك وجميل ذو طرفين من الحديد. كان يحمل درعًا، وعلى رأسه شال تونسي يزيده بهاءً ودفاعًا عن النفس. بهذا المنظر البهي جاء المسلم منشدًا أغنية ألفها في الذكرى العذبة لحبه، قال فيها:

ولدت في غرناطة
تربيت في قَرطَمة،
أحببت في كوين
فارس حدود في ألورة " (القصة، ص ١٥)

بهذا الظهور المُلغز "لابن السراج" الفارس القوي ذي الهيبة الحاذق الماهر الذي تغلب على خمسة جنود يقدر الواحد منهم على عشرة بمفرده، المتغني بالحب المرسوم على ذراعه اليمنى، يضعنا المؤلف في قلب قصته، فتبدأ المواجهة القوية بين بطلي القصة الفرسان حيث "أدرك

رودريغث دي نَربايث حاجة زملائه، فعبر الطريق، وعندما أدرك شجاعة المسلك شعر بالذعر؛ لأنه تمكن من الإطاحة بأربعة على الأرض، والخامس كان في الوضع نفسه تقريبًا، فقال له:

- **أيها المسلم، أقدِم عليَّ، فإذا هزمتني فسأحميك من الآخرين.**

ثم بدأ مناوشة قوية، ونظرًا إلى أن العمدة كان بكل قواه، والمسلم وحصانه جريحان وخر بسرعة فائقة، ولم يتمكن من الاحتفاظ بتوازنه، غير أنه كان يدرك أن حياته وسعادته في خطر" (القصة، ص ١٦).

تتصاعد حدة المواجهة بين البطلين فلا سبيل لاستسلام أي منهما تصل المواجهة إلى ذروتها إلى أن يقطعها الفارس الإسباني بقوله:

- **أيها الفارس، اعترف بالهزيمة وإلا قتلتك.**
- **قال له المسلم: يمكنك أن تقتلني، فأنت تتملكني، لكنك لا تستطيع أن تهزمني، فلم يهزمني أحد.** (القصة، ص ١٦)

بهذه العبارات الحاسمة بين الطرفين تنتهي المواجهة حيث أخذ "رودريغيث" يتأمل قوة "ابن السراج" وعزمه، ولأنه يعلم أن مواجهته إياه كانت غير متكافئة؛ ذلك أنه واجهه بكامل قوته بينما دخل ابن السراج هذا النزال عقب محاربته لخمسة جنود أصابه فيها ما أصابه من جروح وإنهاك، فقد أرجع "رودريغيث" أسره لهذا الفارس الشجاع للحظ "**اعلم أن على الفرسان أن ينتصروا ويخسروا في الحرب، لأن كثيرًا من الأمور تتعلق بالحظ**" (القصة، ص ١٧).

بهذه المواساة العذبة التي أخذ يبديها الفارس الإسباني تجاه "ابن السراج" والتي تحفظ له قدره ومكانته تتخذ المحاورة مسلكًا آخر بين البطلين، فكلاهما يرغب في الحديث إلى الآخر والتعرف عليه أكثر، فأخذ ابن السراج في هذا الجزء من القصة يسترسل في الحكي عن عراقة أسرة "آل بني السراج" في غرناطة ومآثرهم وانتصاراتهم المستمرة في كافة المعارك حتى يصل إلى أن نهايتهم كانت عن طريق الوشاية "**ونظرًا لكثرة من كانوا في صف الملك هدمت منازلهم وحرموا من ممتلكاتهم وشاع اسمهم في المملكة كخونة، وكانت نتيجة هذا الحادث التعيس أنه لم يستطع أي من بني السراج العيش في غرناطة باستثناء أبي وعمي، إذ ثبتت**

براءتهما من هذا الحادث، بشرط أن يربى أبناؤهما خارج المدينة وألا يعودا إليها، وأن تتزوج بناتهم خارج المملكة" (القصة، ص ١٨).

ينقلنا تطبيق هذا الشرط إلى الإلمام بمدى عمق وصدق وعذوبة مشاعر الحب بين ابن السراج والجميلة شريفة؛ ذلك حيث بُعِث بابن السراج إلى عمدة "قَرطَمة" منذ ولادته لما بينه وبين والده من علاقة صداقة قوية حتى يتولى تربيته وكانت له ابنة في عمر ابن السراج نفسه، فيتولد الارتباط والحب الفطري بينهما الذي تبنيه الأيام بما تحمله من أدق التفاصيل؛ فابن السراج لا يتذكر لحظة في عمره إلا وهو معها **"لا أتذكر ساعة إلا وكنا معًا. تربينا معًا. كنا نسير معًا ونأكل معًا ونشرب معًا. ولد من هذا الوفاق حب طبيعي نما دائما مع مراحل عمرنا"** (القصة، ص ١٩)، ويستمر الحكي على لسان ابن السراج مُحملًا بالرقة والعذوبة ممعنًا في الذاتية **"كنت قد وضعت سعادتي فيها وروحي على مقاس روحها، كان كل ما لا أراه فيها أراه قبيحًا، وبلا فائدة في العالم، كان تفكيري منصبًا عليها"** (القصة، ص ٢٠).

تبدأ عقدة القصة في التشكل مع وصول مشاعر الحبيبين إلى ذروتها حين تتحتم مغادرة الجميلة شريفة لقرطمة مع والدها تنفيذا لأمر ملك غرناطة الذي يأمر والدها بالانتقال إلى "كوين" لتولي أمورها المكان الذي يقع على الحدود مع "رودريغيث" الفارس الإسباني، لا أحد من الحبيبين يطيق الفراق، الفراق بالنسبة لهما يعني الموت "ودع كل منا الآخر بدموع وانتحابات خلفت فينا حرقة مؤكدة، من زفرة خرجت من الأحشاء، ونظرًا إلى أنها رأتني في هذه الحالة وعليَّ علامات الموت، فإنها قالت لي: **"يا ابن الريس إن روحي تخرج مني لفراقك، ولأنني أشعر بما تشعر به، فإنني أريد أن أكون ملكك حتى الموت، فقلبي لك، وحياتي لك، شرفي وممتلكاتي.. ستذهب إليَّ حيث أكون "** (القصة، ص ٢١).

فكان الوعد أن يلتقيا مرة أخرى فالجميلة شريفة سترسل في استقدامه حين تتهيأ الأمور وستبقى حتى هذا الحين في لوعة انتظاره، وابن السراج سينتظر رسالتها ليذهب إليها وإن كلفه

الأمر التضحية بنفسه، بهذا الوعد هدأت نيران الفراق التي اشتعلت في قلبيهما، إلا أن عقدة القصة ما زالت تتشكل حتى تصل إلى قمتها بوقوع ابن السراج في أسر الفارس الإسباني.

وكما أرجع الفارس الإسباني أسره لابن السراج للحظ، فقد كانت هذه هي قناعة ابن السراج أيضًا ولكن لأن دافعه للانتصار وقوته مستمدة من حبه "**الواقع أنني لم أصدق أنه حتى لو كان هناك مائة فارس لما قدروا عليّ في أرض المعركة؛ لأنني كنت أحمل معي سيدتي، وإذا كنت قد هزمتني فلم يكن هذا للجهد، إذ ليس ممكنا، بل لأن حظي التعيس أو قدر السماء أراد إيقاعي، وهكذا عليك الآن أن تقدر في نهاية كلماتي الخير الذي فقدته والشر الذي لدي... دعني إذن أيها المسيحي أواس [أواسي] نفسي بزفراتي، ولا يعد ذلك ضعفًا فالمصيبة أكبر من هذا**" (القصة، ص ٢١)، هنا تصل عقدة القصة إلى قمتها فلا سبيل للقاء الحبيبين بعد وقوع "ابن السراج" في الأسر.

مع تأزم عقدة القصة يبرز دور القيم الإنسانية في حلها، فقيمة الحب قيمة إنسانية سامية تؤلف وتجمع البشرية على مختلف أجناسها فضلًا عن قيم الفرسان التي يتحلى بها البطلان كل هذا مجتمعًا كان دافعًا للفارس الإسباني أن يتجاوب مع مشاعر ابن السراج، ويحل هذا الموقف المتأزم "**أصيب رودريغيث بالذهول وأشفق على المسلم..... فقال له: يابن الريس أريد أن ترى أن فضيلتي أكثر من حظك العثر. فإذا وعدتني كفارس أن تعود إلى محبسي في اليوم الثالث سأعطيك حريتك كي تواصل طريقك، إذ سيؤلمني أن أقوض هذه المهمة**" (القصة، ص ٢١).

يتوج هذا اللقاء الممنوح لابن السراج والجميلة شريفة بزواجهما رغم غياب أبيها فلا حلول أمامها سوى الزواج حتى يتحد مصيرهما معًا؛ ذلك أنه حينما قص عليها "ابن السراج" قصة أسره أرادت فديته بكل ما تملك "**إنني أرى أن أي فارس يعطي كلمته ليعود إلى السجن سيفى بإرسال الفدية التي يمكن أن تطلب منه. لهذا سموهما كيفما تشاءون، فمفاتيح ثروات أبي لدي، وسأضعها تحت تصرفكم، أرسلوا منها ما يبدو لكم**" (القصة، ص ٢٤).

يشكل هذا العرض نوعًا من الصراع النفسي الداخلي الذي يعتري ابن السراج بين ما يحتمه عليه الوعد وما يحتمه عليه القلب لكنه سرعان ما يحسم حيرته بالانتصار إلى كلمته "**يبدو يا سيدتي أن حبكم الجم لي لا يدعكم تقدمون النصيحة لي، وبالمناسبة لن أقع في هذا الخطأ الجسيم؛ لأنني عندما كنت في طريقي إلى لقائكم كنت مجبرًا على الوفاء بوعدي، وكوني ملككم الآن يضاعف التزامي. سأعود إلى ألورة، وسأضع نفسي تحت عمدتها، وبعد أن أقوم بما يجب فليفعل هو ما يشاء**" (القصة، ص ٢٥)، فما كان من الجميلة شريفة سوى النزول على رغبته مع إصرارها على مرافقته، فأن يكونا أسرى معًا أهون من افتراقهما.

تواصل القصة فنية بنائها وهندسيته حيث لم تترك فضيلة الصراع السابق يستأثر بها بطل دون البطل الموازي والمكافئ له فتفسح لبطلها الإسباني مساحة سردية موازية يواجه فيها الصراع النفسي الداخلي ذاته الذي واجهه ابن السرج بين قيمه النبيلة وحبه، ومثلما انتصر بطل القصة ابن السراج لقيمه سينتصر البطل الآخر الذي يقتسم معه بطولة هذه القصة قسمة متساوية متكافئة لقيمه أيضًا.

فثمة شيخ يلتقي به المحبوبان وهما في طريقهما للفارس الإسباني فتسأله السيدة عن وجهته فيقول "**أنا ذاهب إلى ألورة لقضاء بعض الأعمال لي مع عمدتها، فهو أكثر الفرسان الذين عرفتهم في حياتي فضيلة وشرفًا**" (القصة، ٢٥) لتسأله "شريفة" أن يحكي لها عن شيء بارز يعرفه عنه، فيبدأ الشيخ في الحكي عن قصة حب عميقة خاضها هذا الفارس الإسباني لكنها انتهت بانتصاره لقيمه فمحبوبته تعلقت به بعد زواجها بسبب الثناء الدائم لزوجها عليه وذكر فضائله "الواقع أيها السيد إنكم تدينون لزوجي أكثر مما هو مدين لكم" فبعد ما أصابه من حيرة قال: "**في الواقع يا سيدة أنا أحبك كثيرًا، وسأحبك منذ الآن فصاعدًا، لا أراد الله أن أوذي رجلًا تكلم عني خيرًا... سأسعى ليكون شرف زوجك مثل شرفي، فلا يمكنني بأي ثمن سداد الخير الذي قاله عني**" (القصة، ص ٢٧).

يعجب ابن السراج وزوجته بالحكاية بقوله: "**إنه لم يشهد فضيلة أكثر من هذه في رجل**" (القصة، ص ٢٧) من هنا يمثل الإعجاب والتقدير والاحترام المتبادل ومحاولة رد الجميل محركًا لبقية أحداث القصة حتى تصل إلى نهايتها "يا رودريغيث دي نربايث، انظر كيف أفي لك بكلمتي، لقد وعدتك بسجين، وجئت لك باثنين، فواحد يكفي لهزيمة آخرين أكثر. انظر زوجتي هنا، احكم ما إذا كنت قد عانيت من أجل قضية عادلة، إننا أسيران، وأنا آتمنُ زوجتي وشرفي لديك". ليأتي رد "رودريغيث" على هذا النحو "**لا أعرف من منكما يدين أكثر للآخر، لكنني أدين بالكثير للاثنين، ادخلا واستريحا في بيتكما، وليكن منزلكما هنا منذ الآن فصاعدًا، فصاحبه ملك لكما**" (القصة، ص ٢٧).

على هذا النحو تنتهي القصة بمنح المحبوبين حريتهما ومشاركتهما حفل زواجهما، ومحاولة كل منهما أن يرد هذا الدين عبر إرسال الهدايا الثمينة التي تصغر في أعين أبطال هذه القصة أمام عظم التلاقي والصداقة المصحوبة بتقدير كل طرف للآخر "**بهذه الطريقة أصبح كل طرف راضيا عن الآخر وسعيدًا، تجمع بينهما صداقة قوية، دامت لهما طوال الحياة**" (نهاية القصة، ص ٣٠).

ثمة دلالات تكتسبها الشخصيات والأحداث التاريخية حين تُقدَّم عبر معالجات فنية، لقد أكسبت هذه القصة الشخصيات والأحداث عبر استدعائها من التاريخ وتوظيفها داخل هذا العمل الأدبي أبعادًا جديدةً، بل لعلها استثمرت قصة الحب هذه بشخصياتها وأحداثها لتقدم لنا من خلالها قصة التقاء حضاري ممكن وقيمًا إنسانية تؤلف بين الثقافات والأجناس المختلفة، وتفتح آفاقًا للتواصل الخلاق؛ إذ كانت العلاقة تنبني على النظرة المتكافئة من كل طرف تجاه الآخر تعترف له بقدره وتنزله مكانته، الأمر الذي عمدت إليه هذه القصة في توظيف تقنياتها الفنية من وصف وحكي وحوار لرسم شخصية بطليها بشكل متساو في المهارة وعلو الشأن والقيم، فضلًا عن مساحات السرد والحكي المتكافئة التي اقتسمها البطلان في القصة، بالإضافة إلى تقارب صراعاتهما التي خاضاها داخل القصة حتى يصلا إلى هذه النهاية التي

تنتصر على الصراع العسكري الذي يتسلح بالهدم والتخريب لصالح الصداقة القوية التي تتسلح بالحوار البناء.

على هذا النحو كانت قراءة هذه القصة من زاوية تقاطعاتها الفنية مع تراث قصصي نثري له بصماته وما اكتسبته من إجادة بناء وتوظيف لتمثل بعناصرها الفنية حلقة الوصل بين التراث القصي والرواية الحديثة بمفاهيمها وتقنياتها، هذا بالإضافة إلى ما حمله مضمونها من تقاطعات حضارية؛ حيث هذه المنطقة المشتركة التي تُستدعى فيها حضارة لتمنح حضارة أخرى نقطة الانطلاق والحياة، وغالبًا ما تكون الساحة الفنية والثقافية هي الساحة الأمثل التي تتحطم على صخرتها الصراعات العسكرية والسياسية لصالح المشترك الإنساني بين مختلف الثقافات والأجناس والديانات.

الهوامش :

[١]آنخل جنثالث بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٥٥م، ص٥٠٧.

[٢] مُحَمَّد عبد السميع، التراث الموريسكي المخطوط: بحوث مترجمة عن الإسبانية، مقال: مار غوميث ريناو Mar Gomez Renau ، اللغة الأعجمية وآدابها: بديل إسلامي للإسبانية، تصدير إسماعيل سراج الدين، مكتبة الإسكندرية، مصر، ٢٠١٥م، ص٢٠-٢١.

[٣]المرجع السابق، ص١٥.

[٤]المرجع السابق، ص١١.

[٥]فاطمة إبراهيم ميحسن، الأدب الموريسكي (١٤٩٢-١٧٠٠م) دراسة استقرائية تحليلية ثقافية، رسالة دكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الأردنية، ٢٠٢٢م. https://www.addustour.com/articles/1285834

[٦] مُحَمَّد عبد السميع، التراث الموريسكي المخطوط، ص٤٥.

[٧] مُحَمَّد عبد السميع، التراث الموريسكي المخطوط، ص٤٥.

[٨] المرجع السابق، ص٣٠-٣١.

[9] de Fuentes, Á. G. (1986). La lengua española de la literatura aljamiado-morisca como expresión de una minoría religios. Revista española de lingüística, 16(1), 21-38.

[١٠] قصة ابن السراج والجميلة شريفة، مؤلف مجهول، ترجمة خالد سالم، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢١٠٨ م، ص٧.

[١١] المرجع السابق، ص٨.

[١٢] المرجع السابق، ص ٣٢.

[١٣] شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٥٠٠.

[١٤]مكي، محمود علي. "الاستشراق الاسباني. " مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ج ٨٢،١٩٩٨، ص ٤-٥.

[١٥] تاريخ ثورة الموريسكيين، ص ١٥٦.

[١٦] تاريخ ثورة الموريسكيين، ص ١٥٥-١٥٦.

[١٧] سليمان العطار، إسبانيا مخترعة الرواية الحديثة، الرواية– قضايا وآفاق، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٠ م، ص ٤-٥.

[١٨] سليمان العطار، الرواية– قضايا وآفاق، ص ٧.

[١٩] سليمان العطار، إسبانيا مخترعة الرواية الحديثة، الرواية– قضايا وآفاق، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٠ م، ص ٤-٥

[٢٠] قصة ابن السراج والجميلة شريفة، مؤلف مجهول، ترجمة خالد سالم، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢١٠٨ م، ص ٣٢.

المصـــادر

- قصة ابن السراج والجميلة شريفة، مؤلف مجهول، ترجمة خالد سالم، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢١٠٨ م

المراجع:

- آنخل جنثالث بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة،١٩٥٥م.
- خوسي مونيوث إي غفيريا، تاريخ ثورة الموريسكيين، ترجمة عبد العزيز السعود، منشورات ليتوغراف، الطبعة الأولى، طنجة، ٢٠١٠ م.
- زيغريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب "أثر الحضارة العربية في أوروبة"، ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثامنة، ١٩٩٣ م.
- سليمان العطار، إسبانيا مخترعة الرواية الحديثة، الرواية– قضايا وآفاق، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٠ م.
- مُحَمَّد عبد السميع، التراث الموريسكي المخطوط: بحوث مترجمة عن الإسبانية، تصدير إسماعيل سراج الدين، مكتبة الإسكندرية، مصر، ٢٠١٥م.
- محمود علي مكي، "الاستشراق الإسباني،" مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ج ٨٢،١٩٩٨ م.

De Fuentes, Á. G. (1986). La lengua española de la literatura aljamiado-morisca como expresión de una minoría religios. Revista española de lingüística, 16(1).

- **روابط إلكترونية**:
- https://www.addustour.com/articles/1285834: فاطمة إبراهيم ميحسن، الأدب الموريسكي (١٤٩٢–١٧٠٠م) دراسة استقرائية تحليلية ثقافية، رسالة دكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الأردنية، ٢٠٢٢م.